

الواقع اللغوي في الجزائر

أ. د. ناصر الدين سعيدوني

إن كينونة الشعب الجزائري في انتمائها الإسلامي وهويتها العربية ومجالها الإقليمي وعلاقاتها البشرية هي حصيلة تطور تاريخي مستمر وتفاعل اجتماعي مثمر وتمايز ثقافي ولغوي أصيل عاشته الجزائر منذ فجر التاريخ، ليصبح اليوم واقعا معيشا تتفاعل معه وتتأثر به، رغم محاولة بعض الدراسات المعادية للعرب والإسلام تجاوزه ورفضه في سعيها لخلق واقع جديد يتماشى وأطروحاتها القائمة على رفض الهوية العربية الإسلامية للجزائر، وهذا ما دفعنا إلى تسليط الضوء على الواقع اللغوي في الجزائر حتى يمكن للقارئ أن يتعرف على الشروط الموضوعية التي تكرست من خلالها الشخصية الجزائرية، والتي نحاول إجمالها في النقاط التالية :

1. الماضي البربري لإفريقيا الشمالية، باعتباره إرثا تاريخيا مشتركا لأبناء المغرب العربي، نتج عن تكامل العناصر البشرية ذات الأصول الحامية والشامية وتفاعلها في مجال جغرافي واسع يمتد من سواحل المحيط الأطلسي غربا وحتى وادي النيل شرقا ومن سواحل البحر المتوسط شمالا وحتى أعماق منطقة حوض نهر النيجر الأوسط (إقليم الساحل) جنوبا،

تعود بدايته إلى عصور ما قبل التاريخ، كما تشهد على ذلك الرسوم الصخرية بالأطلس الصحراوي ومنطقة الطاسيلي¹، وتؤكد بقايا الحضارة القفصية والعاترية²، وقد تبلور هذا الإرث التاريخي من حيث المواصفات الإثنية والخصائص الثقافية والتركيبية البشرية والقراءة اللغوية ليكون فضاء حضاريا وبيئة بشرية واحدة منفصلة عن العمق الإفريقي بنطاق السفانا والغابات ومنعزلة عن أوروبا بالبحر، ولكنها متصلة بالجزيرة العربية ومنطقة شرق البحر المتوسط حيث تسود الأقوام السامية. وهذا ما جعل الأديب أمين الريحاني في تعليقه عن الأصول البربرية يعتبر القول بأن البربرية و الفينيقيّة والفرعونية لا تمت بصلة للعرب و أنّها معادية للعروبة مجرد نزعات مصطنعة وعقيمة وميتة³، لأن شواهد التاريخ تؤكد التلاحم البشري والتواصل الحضاري بين جزيرة العرب وجزيرة المغرب عبر البحر الأحمر ووادي النيل.

كل ذلك يجعل من شمال إفريقيا والهلال الخصيب والجزيرة العربية بيئة بشرية متكاملة ومجالا حضاريا واحدا، تشهد عليه وتؤكد الشواهد اللغوية والإثنوغرافية وتقره نتائج البحوث الأثرية وتؤكد كتابات المؤرخين المسلمين و النسابة العرب التي تكاد تجمع على أن نسب البربر من صنهاجة وزناتة متصل بالعرب⁴. ومن ذلك ما ذكره

¹ .الرسوم الصخرية (Art rupestre) بالأطلس الصحراوي و بالمناطق الصحراوية الداخلية (الطاسيلي) ترتبط بالعصر الحجري الحديث أو النيوليتيكي (6000-1200 ق.م.)، وأغلبها يرجع إلى حوالي 4000 ق.م.، عندما كان مناخ شبه رطب يسود مناطق الصحراء الكبرى، وهذه الرسوم من حيث دلالاتها الأثرية تعتبر فقرة نوعية في معارف ومهارات إنسان ما قبل التاريخ.

² . الحضارة القفصية (5000-9000 ق.م.): تمثلت مظاهرها في القواقع والبقايا الحلزونية (Escargotières) المنتشرة بالهضاب العليا القسنطينية والجنوب التونسي وأطراف الصحراء الجزائرية- التونسية. أما الحضارة العاترية فقد ارتبطت بالعصر الحجري الوسيط أو الباليوليتيكي (Paléolithique) ببلاد المغرب (الألف الثالث قبل الميلاد)، وجدت آثارها في التلال الرملية (Cendière) في المناطق الشرقية للجزائر، وهي عبارة عن حجارة ذات شظايا جانبية (Flaker) على شكل رؤوس سهال أو أزاميل ونصال؛ مع العلم بأن الحضارتين القفصية والعاترية كلاهما كان مقدمة وتمهيدا للعصر الحجري الحديث (النيوليتيكي) بشمال إفريقيا.

³ . أمين الريحاني، الرحلات : المغرب الأقصى ونور الأندلس، بيروت، دار الجبل، د.ت، ص. 444.

⁴ . يكاد مؤرخو المغرب العربي في الفترة الإسلامية يجمعون على صلة القرابة بين الأصول البربرية والأصول العربية، سواء بالنسبة للبتر (زناتة) أو البرانيس (صنهاجة)، ورغم تمحيص هذه الروايات ويتعلق بها من أنساب على ضوء المعطيات الجغرافية واللغوية، إلا أنها تظل في

إسماعيل بن الأحمر (ت. 810 هـ/1407 م) في "روضة النسرین فی دولة بنی مرین" بقوله: "إن زناتة كلها عرب من مضر... وهم من ولد بر بن قيس وهو عربي وليس بربري، سكن مع أخواله من البربر، وكانوا يسكنون بأرض فلسطين وما والاها من بلاد الشام ومصر، يجاورون العرب في المساكن والمراعي"¹.

إن الدراسات العديدة حول الأصول البربرية وفترة ما قبل التاريخ بشمال إفريقيا تسمح للقارئ المحيد والباحث المتقصي للدلالات الأثرية الاستنتاج بأن الجزيرة العربية والصحراء الإفريقية اللتين يفصلهما البحر الأحمر الآن، كانتا مجالا حضاريا وبشريًا واحدًا انحلت معالمه بفعل التطورات التاريخية والتحولات المناخية ولم تبق منه سوى ترسبات ظلت ماثلة في بعض المناطق الجبلية والواحات الصحراوية بشمال إفريقيا وأطراف الجزيرة العربية وخاصة اليمن منها، لتشهد على أن هناك بحرا حضاريا واحدا قد جف يتشكل في الأساس من أقوام بشرية ذات أصول واحدة سادت منذ فجر التاريخ المجال الجغرافي الذي يشمل مناطق جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا، وهذا ما يؤكد التواصل الحضاري والتفاعل البشري لشمال إفريقيا مع وادي النيل والجزيرة العربية وأطرافها في شكل هجرات سلمية أو غزوات عنيفة تنطلق من الشرق وقد تأتي من الغرب كما هو الحال في غزو عناصر الليبو لوادي النيل وتأسيسهم الأسرة الثانية والعشرين (950-730 ق.م.) على عهد شيشنق الأول، لتتواصل حلقاته مع قدوم الفينيقيين إلى سواحل المغرب وتأسيسهم قرطاج (814 ق.م.) وانطلاق الفتوحات الإسلامية الكبرى في القرن السابع الميلادي وتغرية الهالابين نحو بلاد المغرب.

نظرنا ذات دلالة تاريخية، فهي تمثل حكما أخلاقيا ونظرة اجتماعية أساسها التأسيس لأمة واحدة تلتحم فيها العناصر العربية بالأقوام البربرية.

¹. أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر (ت. 810 هـ/1407 م)، روضة النسرین فی دولة بنی مرین، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط. 2، الرباط، المطبعة الملكية، 1991، ص. 17.

2. الانتماء الإسلامي والهوية العربية كحvisلة عملية تفاعل واندماج بطيئة

ومتدرجة و لكنها مستمرة ومؤثرة، أسفرت عن تبلور خصائص شعوب المغرب العربي وتأكيء طابعها الإسلامي العربي، فكما هو معروف فإن بلاد المغرب، من برقة وحتى سواحل المحيط الأطلسي، اعتنق سكانها الإسلام وانتشر اللسان العربي بينهم بفعل الظروف التاريخية التي عاشتها منذ القرن السابع مثلها مثل غيرها من أقطار المشرق. وقد مر الانتشار السريع للإسلام والتقدم التدريجي للغة العربية بمراحل عديدة أسفرت عن تعمق العقيدة الإسلامية في المجتمعات المغربية وتوطن اللغة العربية وانتشارها بين السكان باعتبارها لغة القرآن ولسان التبليغ وأداة التواصل مع العقيدة الإسلامية وتراثها الحضاري. وقد اكتسب الشمال الإفريقي هويته العربية و أصبحت اللغة العربية لسان غالبية السكان، فحسب إحصاء أجري بالجزائر سنة 1967 وسجلت فيه نسبة من يتكلم البربرية والعربية، كانت النسب كالتالي: 9734100 نسمة يتكلمون العربية أي 81.5 %، و 2267300 يتكلمون لهجات بربرية أي 17.9 %، 11 % منهم يتكلمون القبائلية و 6 % الشاوية و 1 % الميزابية¹. وقد أكدت هذه النسبة نتائج إحصاء شهر أكتوبر 1954 الذي أجرته الإدارة الفرنسية بالجزائر ونشرته في منشوراتها الرسمية، إذ قدر عدد الناطقين بالبربرية في القطر الجزائري بـ 17 % بمن فيهم المهاجرون إلى فرنسا². أما من حيث معرفة اللغة العربية، فيكاد جل المتكلمين بالبربريات يعرفونها ويستعملونها عند الحاجة.

وقد ذكر أحمد توفيق المدني في "كتاب الجزائر" (1932) أن البربر يؤلفون خمس السكان ونحو 90 % منهم يجيدون الكلام العربي العامي إجادة تجعله لا يكاد يتميز

¹. نتيجة أول إحصاء أجري في الجزائر المستقلة في الستينيات و نشرت نتيجته بجريدة الشعب الجزائرية.

². Mohamed Boukhobza, El Watan, 6 janvier 1992.

عن العربي في شيء، ففي أرض الجزائر لا تجد اليوم إلا ثمانين ألفا من البربر لا يجيدون العربية¹.

وقد اكتسبت الجزائر هويتها العربية الإسلامية عبر أربع مراحل تاريخية متميزة هي:

أ. **المرحلة الأولى:** الفتح الإسلامي لبلاد المغرب في القرن الأول للهجرة/السابع الميلادي (49-82 هـ/670-701 م) الذي حمل معه جماعات عربية استقرت في المدن والمعسكرات، مكونة في أغلبها من الجند (المقاتلة) ومن التحق بهم من السكان، فاستوطن حسب اليعقوبي (ت. حوالي 292 هـ/904 م) أخلاط من قريش والعرب والعجم والجند بطننة وقبائل من الجند وعجم من أهل خراسان مدينة الزاب، ونزل سطيف قوم من بني أسد بن خزيمه، واستقر قوم من بني تميم ومواليهم بلزمة، وانتشر قوم من بني ضبة وبعض العجم بمقرة وسط الزاب²، فتعلمت عنهم جماعات من البربر لغة القرآن، ولم يحسوا بأنها لسان أجنبي عنهم بل رأوا فيها وسيلة علم ومعرفة.

ب. **المرحلة الثانية:** التغريبة الهلالية في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر الميلادي (444-547 هـ/1052-1152 م) التي حملت قبائل بني هلال وسليم ومعقل إلى بلاد المغرب، فتزايد عددهم وتكاثرت بطونهم بفعل من التحق بهم وانتسب إليهم من قبائل البربر وخاصة زناتة، فكانوا ككرة الثلج التي تكبر مع تدرجها نحو الغرب، فاستوطنت البوادي ونشرت بها اللغة العربية، فكان تعريب البربري ذاتيا نتج عن

¹. أحمد توفيق المدني (ت. 1984)، كتاب الجزائر، الجزائر، المطبعة العربية، 1931، ص. 142.

². أحمد بن أبي يعقوب إسحاق جعفر اليعقوبي (ت. حوالي 292 هـ/904 م)، كتاب البلدان، ص. 332-343 و 345-347.

الاحتكاك والانتساب والولاء والإقطاع والمصاهرة والتحالف، وأصبحت الغلبة لهذه العناصر العربية والمستعربة من البربر بعد أن ألحق فرسان رياح وزغبة وسليم الهزيمة بجيش الزيري في موقعة حيدران (444 هـ/1052 م) والاستيلاء على القيروان (هـ/1057 م) ومواجهة جيوش الموحيدين بقيادة عبد المؤمن بن علي بسهول سطيف (547 هـ/1152 م)¹. وقد كرس هذا الواقع توطن اللغة العربية في دواخل بلاد المغرب وتحولها إلى لغة مشتركة لجميع سكان بلاد المغرب من برقة شرقا وحتى سهول المحيط الأطلسي غربا، وقد عبر عن ذلك الشيخ المبارك الإبراهيمي الميلي (ت. 1945) بقوله: "البربر يعلمون أن ما نتج عن هجوم الهلاليين ليس ناشئا عن عداوة جنسية أو قوة حربية، ولذلك اختلطوا بهم و أخذوا عنهم عوائد اجتماعية و أخلاقا فاضلة أضافوها إلى عوائدهم وأخلاقهم، واستعرب كثير منهم لما وجدوا في العربية ثروة لفظية وأدبا راقيا وإبانة عن فهم الدين، واستبدلوا بحياتهم حياة عرية... إن نفوذ الهلاليين في البربر

¹. واجه خليفة محمد بن تومرت ومؤسس دولة الموحيدين عبد المؤمن بن علي الكومي (424-558 هـ/1130-1163 م) في توسعه نحو المغرب الأوسط والأدنى (الجزائر وتونس) جموع الأعراب الهلاليين من الأتيج وجشم ورياح، التي بايعته ثم تحولت عنه رغبة في المحافظة على إقطاعاتها وفضلت التحالف مع قبائل صنهاجة، فتصدى لهم عبد المؤمن على رأس جيوش الموحيدين وألحق بهم الهزيمة بالقرب من سطيف بعد أربعة أيام من القتال (547 هـ/1152 م)، فجددوا له الولاء والتحقوا بجيشه لفتح إفريقيا، راجع:

أبو بكر بن علي الصنهاجي (البيدق)، أخبار المهدي بن تومرت، نشر وتحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 197. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار العرب، بيروت، دار صادر، 1950، ج.1، ص. 419 - 422.

عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، بيروت، 1989، ج.6. أبو محمد عبد الله التيجاني، الرحلة، نشر حسن حسني عبد الوهاب، تونس، دار النشر العربية، 1958.

- الشيخ المبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزائر، 1930، ج.2.
- حمادي الساحلي، فصول في التاريخ والحضارة، بيروت، 1992، ص.32.
- عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية، دراسة في الهوية والوعي، بيروت، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984.
- مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحيدين وبني مرين، ط.2، 1983.

اجتماعيا ولغويا وجنسيا غير ناشئ عن دعاية سياسية وأنه خالد خلود الراسيات لا يذهب بذهاب سلطاتهم ولا توهن من قوته الدسائس الأجنبية، بل يكثر بها أكثر من القائل:

يا ناح الجبل العلي ليوهنه أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل¹.

ج. المرحلة الثالثة: النزوح الأندلسي إلى المناطق الساحلية لبلاد المغرب أثناء القرنين الثامن والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد)، مما ساعد على انتشار اللغة العربية بالجهات الساحلية التي لم تحتك بالهلالين، وقد ارتبطت هذه الهجرة الأندلسية بتعمق الإحساس الإسلامي القائم على فكرة الجهاد ضد الأسبان، وعملت على انتشار اللغة العربية في المناطق التي ظلت حتى قدومهم تستعمل اللهجة البربرية مثل نواحي شرشال وتنس ودلس وبجاية وآرزيو². في الوقت الذي ساهمت فيه عشائر المخزن العربية المتعاونة مع حكام الجزائر العثمانية في تعريب القبائل البربرية التي يعيشون بينها بحوض ساباو والهضاب العليا القسنطينية ونواحي عريب و الونشريس³.

د. المرحلة الرابعة: نضال الحركة الوطنية في المغرب العربي من أجل المحافظة على المقومات الحضارية المتمثلة في العقيدة الإسلامية واللغة العربية التي حاول الاستعمار طمسها والقضاء عليها لا سيما في الجزائر. فارتبط الكفاح السياسي بالعمل

¹. الشيخ المبارك الإبراهيمي الميلي (ت.1945)، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، قسنطينة، المطبعة الجزائرية الإسلامية، 1932، ج.2، ص.122.

². ناصر الدين سعيدوني، الجالية الأندلسية بالجزائر، مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي، مجلة أوراق، مدريد، عدد 1981/4، ص.ص. 122-123.

³. ناصر الدين سعيدوني، وثائق جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص.557.

الإصلاحي وأنشئت المدارس الحرة ونظمت حلقات الوعظ في المساجد وظهرت الصحف وألفت كتب التاريخ وازداد التواصل مع المشرق، مما ساعد على إحياء اللغة العربية الفصحى وانتشار السان العربي العامي مع نمو التبادل التجاري وانتقال السكان من الريف إلى المدن، وهذا ما أشار إليه أحمد توفيق المدني في مطلع الثلاثينيات بقوله: "بحيث أصبحت اللغة العامية العربية هي لغة كل الأهالي في أرض الجزائر سواء كانوا من العرب أو البربر أو غيرهم. واللغة العربية الفصحى هي اليوم عندهم جميعا لغة النهضة والتفاهم العلمي والاجتماعي¹. وهذا ما عمق الهوية العربية لأقطار المغرب العربي ومنها الجزائر، وجعلها مطلبا مشتركا لجميع السكان ومشروعا أساسيا للشعوب المغربية بعد نيلها استقلالها وإحلال اللغة العربية مكانها الطبيعي في مؤسساتها التعليمية.

3. التعايش والتآلف بين اللهجات المحلية "البربرية" واللسان العربي الدارج

والتسليم بأسبقية اللغة العربية في الحياة الاجتماعية والتعامل الإداري والنشاط الثقافي. فمنذ الفتح الإسلامي لم يكن للعربية في المغرب العربي وخاصة الجزائر منه منافس يقف في وجهها وواقع رافض لها، وهذا ما ساعد على اندماج عناصر السكان واستبدال الجزء الكبير منهم لهجتهم المحلية (البربرية) باللسان العربي الدارج طوعية ورغبة ودون إكراه، إذ لم نلاحظ أي حاكم أو داعية أو عالم حارب اللهجات البربرية ببلاد المغرب وعمل على فرض اللغة العربية، بل نجد الكثير من الدلالات والشواهد التي تدل على إقبال المغاربة على تعلم اللغة العربية والاعتزاز بها باعتبارها لغة الدين والدنيا ولسان العقيدة والمعرفة، ولم يخامرهم أي إحساس بأنها لغة دخيلة أو أجنبية، وهذا ما عبر عنه الشيخ البشير الإبراهيمي بقوله: "فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد، أقامت معه العربية لا ترم ولا تبرح ما دام الإسلام مقيما لا يتزحزح... ومنذ

¹. أحمد توفيق المدني، المصدر نفسه، ص. 142.

ذلك الوقت بدأت تتغلغل في النفوس وتنساغ على الألسنة واللهوات، وتنساب بين الشفاه والأفواه يزيدھا طيبا وعدوبة أن القرآن ھا يتلى وأن الصلوات ھا تبدأ و تختتم، فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها، وخالطت الحواس والمشاعر، وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا، فأصبحت لغة دين ودنيا معا... وزاحت البربرية على السنة البربر، فغلبت وبزت، وسلطت سحرھا على النفوس البربرية فأحالتها عربية. كل ذلك باختيار لا أثر فيه للحير واقتناع لا يد فيه للقهر¹.

ولم يسجل التاريخ أي احتكاك أو عدااء أو تحسس بين اللسان العربي والبربري في الجزائر، ولم يكن للحكام وأغلبهم من أصول بربرية منذ الرستميين والحماديين وحتى الموحدین والزيانين أي تعصب لغوي أو تمييز عرقي، فأقبل الناس على العربية بدافع ديني وبوازع المصلحة والرغبة في اكتساب المعرفة والرقي الاجتماعي، وهذا ما عبر عنه الشيخ البشير الإبراهيمي بقوله : "ومن شهد أن البربرية ما زالت قائمة الذات في بعض الجهات فقد شهد للعربية بحسن الجوار وشهد للإسلام بالعدل والإحسان... والبربرية إذا تنازلت عن موضعها من ألسنة ذويها للعربية لأنها لسان العلم وآلة المصلحة"².

ولم يفكر المغاربة في استعمال لهجاتهم البربرية خارج الاستعمال اليومي لأفراد الأسرة والقبيلة بعد أن اعتادوا استخدام اللغة اللاتينية قديما، وفضلوا اعتماد العربية بعد الفتح الإسلامي، وحتى إذا اضطروا إلى استعمالها فقلما يتجاوزون في ذلك شرح أمور دينية لبعض العوام من الناس الذين لا يعرفون العربية. وهذا ما يبطل الادعاء القائل بأن اللغة العربية انتشرت وأصبحت اللسان السائغ لدى المغاربة بفعل فرضها على السكان وقمعها لل لهجات البربرية، ويؤكد ما ذهب إليه جل من درس ظاهرة التعريب الذاتي

¹ . محمد البشير الإبراهيمي، اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة، ليس لها ضرة، جريدة البصائر، عدد 1948/41 (نشرت ضمن آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الجزائر، 1971، ج.2، ص.221).

² . المصدر السابق، ص.222.

بأقطار المغرب العربي بأن العوامل التي قربت بين السكان وساعدت على اندماجهم في البوتقة العربية الإسلامية تعود أساسا إلى العقيدة الإسلامية التي جعلت الإسلام والعربية صنوين متلازمين بل شيئا واحدا، ففهم مبادئ الإسلام مرتبط بتعلم لغة القرآن. وهذا ما لاحظته الفرنسيون وعبر عنه المستشرق والباحث في التراث البربري دي بارميه بقوله : "إن العامل الأهم في عصرنا هذا هو تمثل مجموعات السكان الجزائريين لمبادئ القرآن. فنحن نعيش هذا الواقع الذي تحول فيه الإسلام إلى قيم مقدسة واللغة العربية لغة الكتاب المقدس (القرآن) إلى وسيلة تواصل وأداة مقاومة لمخططات الاستعمار وأخطاء التفرنس..."¹. وهذا ما أكدته أيضا المستشرق جورج مارسيه الذي بحث في عملية تعريب المغرب بقوله : "إن تعريب شمال إفريقيا تم واكتمل ومن الصعوبة بمكان إحياء الإثنية البربرية لصالح فرنسا..."². وأشار إليه دي بارميه بقوله : "إن اللهجات التي نعتبرها قلاعاً تدافع عن خصوصية السكان ضد الثقافة العربية قد تراجعت ببطء وحدثت بها فجوات وثغرات وأصبحت أشبه شيء بالحصون المهتمة، وإن الظاهرة الأساسية في ذلك هو تمثل مجموعات السكان هذه لثقافة القرآن وتحول اللغة العربية الفصحى عندها إلى وسيلة حرب ضد اللهجات البربرية وضد الخطر الفرنسي"³.

4. عدم وجود لغة بربرية مشتركة بين الناطقين باللهجات البربرية، يمكن مقارنتها باللغة العربية وجعلها منافسة لها؛ وإن الإدعاء بأن "الأمازيغية" لغة تجمع شتات اللهجات البربرية قول لا أساس له من الصحة و نظرية غير قابلة للتحقيق، فالواقع اللغوي في شمال إفريقيا وفي الجزائر خاصة يتمثل في وجود لهجات بربرية

1. Desparmet, La réaction linguistique en Algérie, in Bulletin de la Société de Géographie, Alger, 1931, pp. 1-3

2. G.Marçais, Les Origines des peuples berbères, in Revue africaine, 1862.

3. Desparmet,op.cit.,pp.2-3.

مستعملة محليا و متميزة كل واحدة منها عن الأخرى، فهناك القبائلية والشاوية والميزانية والطرقية والزناقية. وهذا ما يفرض علينا في هذا البحث استعمال التسمية الأصلية وهي "البربرية" عوض "الأمازيغية" دفعا لكل التباس وتجنباً لسوء الفهم الناتج عن الاستعمال المغرض لكلمة "الأمازيغية" التي تحمل دلالاتها مغالطة سياسية وإيديولوجية تهدف إلى صنع القناعات الجهوية للنخبة البربرية ببلاد القبائل طابع مطلب مشترك لمختلف الجهات التي توجد بها المجموعات البربرية.

أما الواقع اللغوي بالجزائر اليوم والذي كان حصيلة تفاعل تاريخي طويل لا يقر بأن هناك لغة بربرية مشتركة للناطقين باللهجات البربرية، ومرد ذلك أن اللسان البربري لم يكن في يوم من الأيام لغة دولة أو وسيلة أدب أو أداة إدارة أو خطاب عقيدة. فالتاريخ القديم للجزائر يظهر لنا أن هناك مجموعتين متميزتين من اللهجات إحداهما تعرف بلسان الماصيل والأخرى تنعت بلسان الماصيصيل وهما تطلق عليهما المصادر الإسلامية اسم البتر والبرانس، صنهاجة وزناطة، الشاوية والقبائلية. وكان للاستعمار الروماني دخل في عدم تطور اللهجات البربرية القديمة إلى لغة موحدة قادرة على التعبير عن مظاهر الحضارة وشؤون الحياة. فتراجعت بفعل سياسة الرومنة نحو المناطق الداخلية و الجهات الجبلية، وتكرس هذا الوضع مع الفتح الإسلامي عندما حلت العربية مكان اللاتينية في المدن وانتشرت بين القبائل البربرية المجاورة للمراكز العمرانية خاصة بالجهات الشرقية للجزائر، ومع الهجرة الهلالية انحصر مجال اللهجات البربرية الرئيسي في المناطق الجبلية بالأوراس وجرجرة وبعض الجهات الصحراوية المنعزلة كوادي ميزاب ومنطقة الهوقار، حيث ظل السكان يتكلمون لهجاتهم المحلية وحافظوا على تقاليدهم الخاصة، وهذا ما حد من القاموس البربري وأبقى اللسان البربري شتاتا من اللهجات تختلف من

منطقة إلى أخرى اختلافا واضحا، فعلى سبيل المثال الشاوي الذي يلفظ أثر نجد القبائلي ينطقه آرا¹.

أما على مستوى الحكم والنخبة فإن اللسان البربري ظل منذ الممالك البربرية الأولى بعيدا عن دواوين الحكام وغير مستعمل من طرف النخبة، فلم يكن الحكام البربر منذ فجر التاريخ وحتى الآن متعصبين للهجة قومهم رغم أن سلطتهم كانت تقوم في الأساس على قاعدة الولاء ومبدأ العصبية القبلية ولم يفكروا شأنهم في ذلك شأن الطبقة المتنفذة والنخبة المتعلمة المحيطة بهم في التعصب للهجاتهم، ففضلوا الانفتاح على الفضاء الفينيقي ولم يمانعوا في الاندماج في الثقافة الرومانية ثم الذوبان في المناخ الحضاري الإسلامي منذ اعتناقهم الإسلام، وهذا ما جعل للنخب البربرية إسهامات مميزة في التراث اللاتيني وفي الحضارة العربية الإسلامية، وسمح للبربر أن يشكلوا إحدى المكونات الرئيسية للحضارتين اللاتينية والإسلامية، قبل أن يصبحوا بفعل الاستعمار الفرنسي في طليعة المساهمين في إثراء الثقافة الفرنكوفونية.

ولعل أحسن تعبير عن هذا الواقع نجده عند الملوك النوميديين أمثال صفاقس وماسينيسا ذوي الثقافة البونيقية واللاتينية. كما أن الملك العالم يوبا الثاني ملك موريطانيا القيصرية لم يكن يستسيغ اللهجة البربرية وإنما كان متشبعا بالثقافتين الإغريقية واللاتينية كما تشهد على ذلك مؤلفاته الكثيرة، والأديب الوثني أبوليوس (124-180 م) صاحب "التحولات" أو "الحمار الذهبي" والذي لم يعرف إلا بثقافته اللاتينية رغم افتخاره بأصوله النوميديّة، وحتى القديس أوغسطين (350-430 م) رغم رسالته التبشيرية القائمة على تبليغ دعوة الكنيسة الرومانية باللسان البربري

¹. محمد الصغير زمالي الأوراسي، الحر حر ولو مسه الضرر، جريدة الشعب، الجزائر، 3 أبريل 1990. للتعرف أكثر على وضعية اللهجات البربرية بشمال إفريقيا، راجع: الصغير زمالي، القبائلية ليست هي الأمازيغية، جريدة الخبر، الجزائر، عدد 29/297-30 أكتوبر 1991، ص.8.

خارج مقر أسقفيته هيبون (عنابة) كان يضطر إلى اصطحاب مترجم عارف باللسان البربري ليلبغ دعوته إلى سكان الريف.

واستمر هذا الوضع في الفترات الإسلامية حيث أصبحت العربية لغة الإدارة ولسان التواصل في الوقت الذي تراجعت فيه اللهجات البربرية ولم يتجاوز ما سجل بها بحروف عربية أدعية ومواعظ وشروح دينية موجهة إلى العامة وضع أغلبها بعض فقهاء المذهب الإباضي ودعاة الحركة الموحدية¹. ولم يحل القرن العشرون إلا واللغة العربية العامية منها والفصحى تحتل الفضاء اللغوي والمجال الثقافي الجزائري، وهذا ما عبر عنه الأستاذ أحمد توفيق المدني بقوله: "إن الأمر الذي لا شك فيه هو أن اللغة العربية الفصحى قد أخذت من جديد تتغلغل في سائر الأوساط وذلك بفعل الصحف والدروس والمحاضرات، فخلاصة بحثنا أن نرى اليوم طغيان اللغة العربية والعامية على كل البلاد العربية والبربرية من جهة ونرى أن هذه اللغة قد أخذت تترقى وتهذب وتزداد كل يوم اقتربا من اللغة الفصحى..."².

وبفعل هذه الأوضاع وتلك الظروف ظل اللسان البربري بالجزائر يتمثل في عدة لهجات قد يلاحظ المستمع إليها صلة القرابة بينها لكون أصولها واحدة لكنها أصبحت بفعل التطور التاريخي تختلف عن بعضها من حيث المفردات والنطق وطريقة الاستعمال، في الوقت الذي اقتبست كل واحدة منها كلمات عربية وفرنسية، إذ تقدر الكلمات العربية في اللهجة القبائلية بما لا يقل عن 33%³، وهذا ما لاحظته كذلك الأديب اللبناني أمين الريحاني في زيارته لمنطقة الريف بالمغرب الأقصى بالنسبة للهجة

¹. من قبيل ما قيده أبو سهل ترجمان الإمام أفلح (ق.2هـ) وأبو نوح سعيد بن يخلف (ق.4هـ) ومكتبته المهدي محمد بن تومرت (ق.هـ) والفقهاء محمد بن علي بن إبراهيم السوسي الأوزالي (ق.11هـ) في كتاب الخوض وكتاب بحر الدموع، ومنها ما كتب الدرجنبي، الطبقات، ج.2، ص.ص. 272 و373.

². أحمد توفيق المدني، المصدر نفسه، ص.142.

³. المصدر السابق.

الريفية، وعلق على ذلك بقوله: "إنها أقرب إلى العربية منها إلى أي لغة أخرى، فهي لغة الضاد كالعربية، وإن كانت اشتقاقاً تدل على قواعد أولية. وفيها ألفاظ وأوضاع معربة وألفاظ عربية مبررة"¹. كما أكد ذلك المناضل الوطني عمار أوزيغان وهو من الناطقين بها عندما كتب: "إن القبائلية في أساسها هي لهجة من أصل سامي-حامي قديم وهي في حقيقتها لغة عربية قديمة. مما يجعلها بحكم طبيعتها متكاملة مع العربية، فهي بالنسبة إلى العربية كالكندية بالنسبة للفرنسية في اختلاف ألفاظها... وهذا ما يجعل الناطقين بهما يكونان جماعتين شقيقتين فهما متحدتان في الأرومة التاريخية وفي منشأ الوطن الجزائري... واللغتان المحكيتان القبائلية والعربية (الدارجة) أصلهما واحد وهو اللغة العربية الفصحى التي تلعب دوراً موصلاً مثلث الأبعاد: لغة دينية و لغة مكتوبة ولغة تجارية"².

كل ذلك يؤكد لنا أن عروبة الجزائر ثقافية ذات طابع حضاري ومفهوم ثقافي، نتجت عن تفاعل ذاتي أو مظهر ديني وطابع حضاري وواقع اجتماعي، وتمت من خلال تطور تاريخي طويل كان للأسر الحاكمة البربرية ببلاد المغرب من رستميين وزيريين وحماديين ومرابطين وموحدين وحفصيين ومرينيين وزيانيين دور مهم فيه. كما كان لشيوخ الزوايا (المرابطين) والشرفاء والأعيان والفقهاء ذوي الأصول البربرية فضل فيه بتعليم العربية والاعتزاز بها والانتساب إليها. وقد كان لمنطقة القبائل في ذلك قسط وافر خلد أسماء العديد من عشائر بلاد القبائل في سجل التراث العربي الإسلامي مثل بني منغلات وبني غليس وبني غبري وبني ورتلان، ومن منا لا يفتخر اليوم بابن معطي الزواوي وعبد الرحمن الوغليسي وأبي الفضل المشدالي والحسين الورتلاني وأحمد المنغلاقي

¹ . أمين الريحاني، المصدر نفسه، ص. 144.

² . عمار أوزيغان، الجهاد الأفضل (دراسات جزائرية مترجمة)، بيروت، دار الطليعة، د.ت، ص. 33.

وأبي العباس أحمد الغبريني¹. كل ذلك يجعلنا نقتنع بما أحس به وعبر عنه أمين الريحاني وهو مقيم بين البربر في منطقة الريف: "إن المغاربة يريدون أن تكون لهم صلتهم بالسلف الصالح الحي المحيي المنير الهادي الباني للعروبة و للحق الباعث فيهم روحا جديدة ونزعات وطنية تمتاز عن نزعات الماضي بإنسانيتها الجديدة الشاملة... فالمغاربة أو البربر عرب في دينهم عرب في ثقافتهم، عرب في قوميتهم، عرب في قصصهم، عرب في أخلاقهم وطباعهم"².

من كل ما سبق يتضح لنا أن الوضع الثقافي واللغوي اليوم بالجزائر، أن العنصر البربري وثقافته مكون أساسي للهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، التي أصبحت بفعل التطور التاريخي والتفاعل الاجتماعي حقيقة لا مرء فيها وواقعا معيشا لا يمكن التشكيك فيه أو التناكر له أو تجاوزه إلا بمحاربة عقيدة الإسلام و لغة القرآن كما فعل الاستعمار الفرنسي في الجزائر الذي حاول جاهدا تكوين واقع رافض لهما، كما يتضح في إثارته النزعة البربرية والتأسيس لها لضرب المقومات الأساسية التي تقوم عليها وحدة الشعب الجزائري.

¹. ناصر الدين سعيدوني، دور الزوايا التربوي والتعليمي في الجزائر العثمانية (نموذج بلاد القبائل)، بحوث تاريخ وحضارة الدولة

العثمانية، إرسكا، إستانبول، 2000، ص. ص. 41-87.

². أمين الريحاني، المصدر نفسه، ص. 144.